تمثّلات الأنا بين سلطة الآخر وبراديغم الاعتراف، رواية فضل الليل على النهار لياسمينة خضرا أنموذجا

Representations of the ego between the authority of the other and the paradigm of recognition, a novel the virtue of night over day by Yasmina Khadra as a model

حسين بن تركي*

تاريخ الإرسال: 2024/01/25	تاريخ القبول: 2024/05/12	تاريخ النشر: 2024/06/30

الملخص:

إنّ المتبصّر لطبيعة العلاقة بين الأنا والآخر، يجد أنّها علاقة جدلية متجذّرة في أعماق التّاريخ، وقد تميّزت هذه العلاقة بالزّئبقية وعدم الثّبات، فيشوبها الصّراع والعداوة مرّة، وتكون حميمة مرة أخرى وقد شكّلت هذه الثّنائية حضورا قويّا في روايات الكاتب ياسمينة خضرا، أهمّها رواية "فضل الليل على النهار" التّي صوّر من خلالها تمظهرات العلاقة بين الأنا واللاأنا، ورصد مواقف كلّ منهما وملامح الصّراع والعنف بينهما، واستراتيجيات الأنا لتحقيق سوسيولوجيا الاعتراف.

سنحاول من خلال هذه الدّراسة التّطرق الى علاقة الصراع بين الأنا والآخر في رواية "فضل الليل على النهار" قصد إجلاء مظاهرها وإسهاماتها في تحقيق براديغم الاعتراف؟

الكلمات المفتاحية: الأنا، الآخر، براديغم الاعتراف، الصدام الحضاري.

Abstract:

The insightful of the nature of the relationship between egoism and the other will find a dialectical relationship rooted in the depths of history that characterized by mercurially and instability. On the one hand, it is pervades with conflict and hostility, and intimacy on the important novel among them

*جامعة عبد الرحمان ميرة- بجاية- hocine.benterki@univ-bejaia.dz

is (separating the night from the day) through which he portrayed theaspects of the interconnection between the ego and non-ego, the features of the conflict between the; as well as the ego's strategy to achieve sociology of recognition.

Through this study, we will try to address the relationship of discord between the mentioned above in the novel of (separation the night from the day) in order to find its semblances and contributions to the realization of recognition paradigm.

***Key words**: Ego, non-ego, the other, recognition paradigm, civilized conflict.*

*** *** ***

المؤلف المرسل: حسين بن تركي benterkikamel8@gmail.com

1. مقدمة:

تعتبر العلاقة بين الأنا والآخر إشكالية من أهمّ الإشكاليات المتناولة في الدّراسات بعد الكولونيالية، وقد تناولت الأعمال الإبداعية خصوصا الرّواية هذه العلاقة ونقلت صور اللّقاء بين الأنا والآخر التّي تراوحت بين الصّراع والعداوة من جهة وبين التّعايش والتّسامح من جهة أخرى، والكاتب الجزائري ياسمينة خضرا من بين أهمّ الكتّاب الذّين عالجوا هذه القضيّة خصوصا في روايته فضل اللّيل عن النّهار التّي تمحورت حول ثنائيات الأنا الذّي يمثّل به الشّرق والآخر الغربي.

2. الحدود المفاهيمية لمصطلحي الأنا والآخر

عكست الرّواية الجزائرية التّجريبية مظاهر الصّراع الحضاري بين الأنا والآخر، فتبدّت معالمه وصوره أكثر وضوحا فيها من بقية الأجناس الأخرى، ذلك لقدرتها على عكس العملية الاجتماعيّة وتمثيلها في حركة نموّها وانفتاحها، فاقترنت بواكير الرّواية العربية بصورة اللّقاء الحضاري بين الشّرق والغرب، وانعكس هذا في العديد من الابداعات الرّوائية.

1.2 مفهوم الأنا:

لغة: كان لمصطلح الأنا الحضور والتواجد اللاّفت في الابداعات الأدبية الرّوائية بشكل، وهو الأمر الذّي حذى بالنقّاد والباحثين المتخصّصين في المجال بدراسة هذه الظّاهرة التّي لا تختص بعصر دون آخر، والتي تحمل دلالات تكاد تكون متشابهة تصبّ في صورة واحدة وهي الالتفات إلى الذّات الإنسانيّة وتفعيلها واستثمارها في ظلّ صراعها مع الآخر.

وقد ورد مفهوم الأنا في المعاجم القديمة، فجاءت في لسان العرب بمعنى "اسم مكنى، يساغ للتّعبير عن المتكلم وحده، يكون مبنيّا على الفتح، ليفرّق بينه وبين أن التي هي حرف نصب للفعل، فتضاف ألف أخيرة لتوضّح الحركة في الوقف[1]"، ليكون الأنا بذلك انعكاسا للذّات ومظهر كينونة الفرد ووجوده وهو أيضا القاعدة الأساسيّة للهوّية الجماهيريّة، وقد ميّز ابن منظور بين "الأنا" المبنية على الفتح والتّي تنتهي بألف في نهايتها وبين "أن" التي تستعمل للنّصب، ليستخلص الفروقات بينهما، ويلخّصها في كون الأولى تمثّل صورة الفرد في نظر الآخرين باعتبارها تحدّد القشرة الخارجية للهوّية وللفرد، بينما أن الثّانية ما هي إلاّ حرف نصب للفعل. وقد وردت لفظة الأنا في معجم الوسيط بمعنى" ضمير رفع منفصل يصاغ تعبيرا عن ذات متكلّمة واعية[2]" فالأنا هي وصف للشّخص المذكّر أو المؤنّث، فهي لم تحدّد الجنس أو العرق وإنّما عكست الشّخص مصوّرا لذاته وعاكسا لشخصيّته، فهي إشارة إلى النّفس المدركة سواء كانت مذكّرا أو مؤنّثا، وهذا المفهوم ذاته الذّي ورد في معجم المحيط إذ وردت الأنا في تعريفها على أنّها "ضمير رفع منفصل للمتكلم مذكرا ومؤنثا مثناه، وجمعه نحن[3]" فهي الاعتراف بالذّات الإنسانيّة والنّفس الواعية لذاتها، وهي بذلك ترادف الهوية.

اصطلاحا: يعدّ مصطلح الأنا مصطلحا زئبقيا، فهو غير ثابت وغير مستقر، ذلك لتشعّبه وتوسّع معناه، الأمر الذّي ساعد في اشتراكه في العديد من العلوم الإنسانيّة، فمن الصّعب تضييق النّطاق على المفهوم لحصر معناه فهو "ليعدّ بهذا مفهوما من المفاهيم المراوغة التّي تستعصي على التّعريف و تقديم حدود اصطلاحيّة لها، كونها تدخل في مشاركة كبيرة مع أغلب فروع العلوم الإنسانية ما يجعل تعاريفها تختلف باختلاف توجّهات كلّ باحث، من جهة، وارتباط هذا المصطلح مع هذه العلوم الإنسانية

(الفلسفة، علم النفس، علم الاجتماع، علوم العربية، العلوم السياسية[4]، واشتراك هذا المصطلح في فروع العلوم الأخرى يفضي إلى اختلاف متباين في تعريفه، فالنّظرة نحوه تختلف باختلاف المنظّر له وباختلاف العلم الذّي يرتبط به، وإذا ما حاولنا تقديم مفهوم له متكأين في ذلك على التوجّه الفلسفي فإنّ كلمة الأنا تختلف بين النّظرة التّقليدية التّي أسّستها الفلسفة القديمة، وبين النّظرة الحديثة، التّي رسمت معالمها الفلسفة الحديثة "فقديما استعملت لفظة أنا للإشارة إلى النّفس المدركة، بينما تشير هذه الكلمة في الفلسفة الحديثة إلى البعد النّفسي والأخلاقي وإلى الشّعور الفردي والواقعي وإلى ما يهتم به الفرد من أفعال معتادة ينسبها الى نفسه لتعبّر عن ذاته في منعزل عن الغيرية وهي من هذا المنطلق تمثّل الذات المقترنة بالوجود، التّي لها ماهيتها وكيانها المستقل، وارتكازا إلى هذا الطّرح نتوصّل إلى أنّ هذا المصطلح قد ارتبط في الفلسفة بمصطلح الوجود " لتدلّ بذلك على جوهر حقيقي ثابت قائم على كلّ المقوّمات التّي يتكوّن منها الشّعور الفردي للإنسان، فيكتسب من خلالها استقلاليته ويضمن وجوده،[5]" ليكون المفهوم بذلك متوازيا لحدّ بعيد مع معنى النّفس الموجودة، وقد قدّم الفيلسوف ديكارت مفهوم آخر لمصطلح الأنا يتوافق في معناه مع سابقيه، إذا ربط الأنا بالوجود، فحضور الأوّل يستلزم حضور الثّاني، وقال في هذا الصّدد فيما معناه "أنّ الوجود مرتبط بالتّفكير، فالذّي يفكّر ويشغل فكره فهو بالضرورة موجود وحاضر[6]" فالوجود من هذا المنطلق مرتبط بالتّفكير، والتّفكير مرتبط بالنّفس والذّات، فكون الانسان يفكّر فهو موجود، وعندما يكون الأنا يكون التّفكير وعندما يكون التفكير يثبت الوجود، أمّا إذا تحدّثنا عن مفهوم الأنا ارتكازا إلى المنطق فإنّنا نتوصّل إلى أنّها ترتبط بالمدركات من الأمور،" فهي تعكس الشّيء المدرك، وتركّز على أمرين أساسيين فيه، وهما وحدته وهويته ، وهما شرطان يتضمنّهما التّركيب المختلف الذّي في الحدس، وارتباط التصورات التي في الذهن[7]"، ليصبح الأنا من خلال هذا الطّرح مجموعة من الأحاسيس التّي يتفرّد بها الفرد عن غيره، فتضمن له الاستقلالية والتفرّد، فتشكّل من خلال ذلك تلك الذّات العارفة بنفسها والمتفاعلة مع غيرها.

وإذا توجّهنا إلى فرع الدّراسات النّفسية، فإنّنا سنجد أنّ مصطلح الأنا، قد كان له حضور مفهوماتي أيضا، فكان الاهتمام به وقدّمت له تعريفات مختلفة ومتباينة

وكان السّبق في الحديث عن هذا المصطلح من الجانب النّفسي للباحث والفيلسوف الألماني سيغموند فرويد الذّي ساهم بشكل كبير في تقديمه "فتوصّل من خلال رحلة بحثه بأنّ هناك جزءا كبيرا من دواخل النّفس الانسانيّة يدعى اللاشعور، وهذا الجزء تتركّز فيه مختلف ردود أفعالنا لتحوّل فيما بعد إلى أفعال لا إراديّة، وتوصّل أيضا بأنّ لهذا الجزء اللاّشعوري من حياتنا العقليّة تأثيرا كبيرا على سلوك الانسان ومشاعره، سواء في حياته السويّة العادية أو فيما يتعرض له من اضطرابات وأمراض نفسية[8]"، واستنادا إلى ما جاء به هذا الباحث، يمكن أن نقول بانّ كل ما ينتجه الانسان، نخصّ بالذّكر هنا ما تعلّق بالجانب السلوكي، ما هو الاّ ناتج من الجهاز النّفسي للشّخص عينه، والجهاز النّفسي حسب سيغموند فرويد ينقسم إلى ثلاث أقسام هي "الهو، الأنا، الأنا الأعلى" فالذّات الانسانيّة تنمو وتتكوّن حسب سيغموند فرويد انطلاقا من السّير وفق مبدأ التّقسيم، أي تقسيم المهام وتوزيعها على مكوّنات الجهاز النفسي، فيمنح للأنا أحقّية التكفّل وتحديد الضوابط التّي يتأسّس عليها الغير، فتحدّد من خلال ذلك طريقة التّعامل مع الهو وفق ما يتوائم مع مستجدّات الواقع المعيش ولا يتعارض من متطلّبات الأنا الأعلى[9]" الذي يتّصل بالقيم الاجتماعية والتنشئة والمثل العليا، فتكون له القدرة على تحديد وضبط الأطر العامة، فتعمل على إحداث نوع من التّوفيق والموازنة بين النّفس الشّهوانية ومتغيّرات الواقع الرّافض لذلك، واستنادا إلى هذا تتبدّى معالم الأنا وتتّضح، لتصبح عبارة عن نشاط شّعوري خارجي ممزوج بإدراك حسّي داخلي، فيتمّ من خلال هذا المزج تفعيل العمليّات العقلية، القائمة في الأساس على تلك العمليّة الانتقالية من الدّاخل نحو الخارج أي من اللاّشعور إلى الشّعور والإدراك بهدف تحقيق وظيفة الدّفاع عن الشّخصية ورسم حدودها وفق ما يتوافق مع البيئة، فتحقّق بذلك تفرّدها وخصوصيتها الخاصة التّي تميّزها عن غيرها.

ما يمكن الوصول إليه من خلال التّقسيم الذّي رسمه سيغموند فرويد هو انّ الأنا تعمل كوسيط تنتقل عبره تأثيرات العالم الخارجي وتمتزج بمتغيّرات النّفس الانسانيّة لتترجم إلى أفعال وردود أفعال، فتتّضح من خلال ذلك العلاقة بين الأنا والغير في كونها علاقة تأثير وتوجيه وتحديد "إذ يعمل الأنا على ترجمة الأحداث التّي يعرفها العالم الخارجي ثمّ ينقلها إلى الهو الذّي يقوم بتحديد ردود الأفعال ويضبطها

ضبطا طبيعيّا[10]"، وهذا ما ينعكس على الشّخصية الإنسانيّة اذ أنّها كلّما كانت سويّة كانت درجة قوة الأنا عالية، وكلّما كان العكس كلّما زادت سطوة الهو واستسلمت الذّات لانحرافات الهو، في حين اهتمّ الباحث "جيمس" بهذا المصطلح فقدّم له تعريفا ربط من خلاله التفكير بالهوية[11]" فهو شعور أو خبرة شعورية يتشكّل من خلالها الجهاز التّنفيذي للشّخصية والذّي يتحكّم في الهو ويدير شؤونه ويحفظ بذلك الاتصال بالعالم الخارجي.

وإذا قاربنا هذا المصطلح (الأنا) من النّاحية الاجتماعية، لتوصّلنا إلى أنّ علماء الاجتماع قد "خصّصوا له نصيبا من أبحاثهم ودراساتهم، ليقدّموا له تعريفات وتفسيرات وتحليلات متنوّعة، تختلف باختلاف المنظّر له، نذكر على سبيل المثال لا الحصر الباحث يوسف حداد "الذّي أقرّ بانّ مصطلح الأنا يرتبط بطريقة أو بأخرى بالهوية الفردية وخصائصها المعرفية، فهو يرتبط بالإنسان ونمط تفكيره وسلوكه، وما يميّزه من خصائص ومكونات فكرية واجتماعية، تكون في الغالب موروثة أو مكتسبة ،يتميّز بفضلها لفرد عن غيره[12]" فارتبط مفهوم الأنا في علم الاجتماع بالهوّية الفرديّة للشّخص، وهي بهذا المفهوم، فرد واع لهويته وارتباطه بمحيطه، وإحساس الفرد بأناه يتحقّق من إدراكه لكينونته.

عرّفت الأنا استنادا إلى ما جاد به علم الاجتماع، بأنّها فرد واع لهويته المستمرّة وارتباطه بالمحيط، فإحساس الفرد بأناه لا يتحقّق إلاّ بعد إدراكه لكينونته التّي تحقّق بدورها التّكامل الاجتماعي، باندماج الأنا في الجماعة، ونتيجة لهذا الاندماج فإنّ الأمر يفترض وجود حالة أخرى هي النحن أو الغير، فمن "الشروط الأساسية والمهمّة ، التّي تمكّن الفرد من بناء وحدة بسيكولوجية اجتماعية هو إنشاء صورة الآخر، تلك الصّورة التّي يتحقّق بفضلها نزعة الفرد إلى خلق انشطار بين "النحن" و"الهم" وإلى تثمين الفروق القائمة بين هؤلاء وأولئك، تلك النزعة التواقة إلى إنشاء نحن ذاتية تقرن بكلّ ما هو آخر لكي يصلح فصلها عنه لاحقا، وقد تكون للآخر أولوية أكبر على الأنا في هذه الحالة[13] " ومنه يمكن أن نتصوّر أنّ الأنا قوّة من بين القوى التّي توجد في مجال سلوكنا. والنّحن التّي تضمّ الأنا بحيث يصبح جزءا من الكل.

كما توصّلت الباحثة "ميد مرغريت" إلى وضع مفهوم اجتماعي للأنا ذلك "عندما اقرّت بأنّ النفس البشرية عبارة عن أمور مدركة، ومنه فوجود الأنا مرتبط بالإدراك، ووفق ما جادت به فإنّ الانسان يشعر بنفسه ويستجيب لها انطلاقا من الموضع الذي يتوضّع عليه في المجتمع الذي ينتمي إليه، الذي يحدّد علاقاته وارتباطاته[14]"فالأنا والذات وفق طرح مرغريت هو المعنى المجرّد لإدراك الفرد لنفسه جسميا وعقليا واجتماعيّا في ضوء علاقته بالآخرين، فتشكّل الأنا مرهون إذا بالدّور الذّي تؤديه داخل الوسط الذّي تعيش فيه متأثرة به من جهة ومؤثرة فيه من جهة أخرى.

2.2. مفهوم الآخر:

لغة: إنّ العلاقة بين الأنا والآخر علاقة جدليّة متجذّرة في أعماق التّاريخ، تعود جذورها إلى بدايات الانسان، وقد تمخض عن هذه العلاقة جدل كبير حول طبيعتها وماهيتها، تعود جذورها إلى بدايات الخلق، فوجود الأنا يفرض وجود الآخر وقد أصبح مفهوم الآخر يتمثّل بأوجه عديدة، كلّ يفسّره حسب موقعه ومنطلق تفكيره، وهذا الأمر أفرز كمّا من التّعريفات، فمن النّاحية اللّغوية ورد مصطلح الآخر في لسان العرب بمعنى "اسم على أفعل، والآخر بمعنى غير، كقولك رجل آخر وثوب آخر وأصله أفعل، وتصغير آخر "أو يخر" والجمع آخرون، ويقال هذا آخر وهذه أخرى في التذكير و التأنيث[15]" فهو كلّ ما دلّ عل الغير المخالف للانا، كما ورد أيضا في معجم الوسط بمفهوم " تأخر والشيء جعله بعد موضوع هو الميعاد اجعله تأخر عنه جاء بعده وتقهقر عنه ولم يصل اليه، والآخر احد الشيئين ويكونان من جنس واحد[16]" والجديد الذّي وجد في معجم الوسط هو أنّ الأنا والآخر يشتركان في الجنس الواحد يتقابلان و يتعارضان لكنهما من جنس واحد، ومنه يمكن أن نقول أن الآخر جاء بمعنى الغير والمخالف.

كما كان هناك حضور لمصطلح الآخر عند الباحث "محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي" الذّي يرى فيه "أنّه عبارة عن اسم مشتق من أفعل، وصيغته المؤنثة تكون أخرى، ولا أفعله أخرى الليالي أي ابدا، وباعه بآخره بكسر الخاء بنسيئة وعرفه بآخره بفتح الخاء أي أخيرا وجاءنا آخر بالضم أي أخيرا ومؤخرا العين بوزن مؤمن ما يلي الصدغ ومقدمتها [17]" كما كان هنالك حضور آخر لهذا المصطلح في كتاب المنجد في اللّغة

العربية فعرّف " فعرّف بانّه ينتمي إلى الآخر المختلف عن الأنا، وهو الشيء المقصود الذي يميّز أشخاصا أو أشياء مختلفين تمام الاختلاف عن الشخص او الشيء نفسه، والجنس نفسه، فقولنا بانّنا نحب آخر أي أن من نحب ليس بالشّخص المقصود ذاته بل غيره ثان[18]" من هنا نستنتج أن الآخر هو الشّخص الغريب المختلف عن الأنا سواء كان ينتمي إلى المحيط الاجتماعي الواحد أو إلى محيط آخر، سواء اشترك في نفس عادات وتقاليد الأنا أو خالفها، فهو يعتبر دائما آخر، وبالتّالي فقد أجمعت كلّ هذه المعاجم التّي تطرّقنا إليها بأنّ الآخر والغير يحملان الدّلالة نفسها فالغير هو الآخر الذّي يعاكس ويخالف الأنا.

اصطلاحا: يعتبر الإنسان كائنا اجتماعيا بطبعه، يعيش في مجتمع يتفاعل ويتواصل ويتعامل مع أفراده، وبالتالي لا يمكن له أن يعيش بمعزل عن الآخر، فوجوده مرتبط ارتباطا وثيقا بوجود الآخر، والمتتبّع لهذا المصطلح (الآخر)، يدرك أنّه نقيض الذّات، فهو كل ما كان موجودا خارج الذات المدركة ومستقلاّ عنها، ويرى المختصّون في هذا الشّأن أنّ معنى المصطلح يقوم "في أساسه على العديد من المحاور الأساسيّة، لعلّ أهمّها ما لخّص في محاور كبرى، فالمتداول و الشّائع هو الشخص الآخر المختلف عن الأنا فكريا وعقائديا أي انّنا عندما نتلفظ بلفظة الاخر فإنّنا نقصد بها الاخر المختلف الذّي يمثّله شخص أو مجموعة من الأشخاص المختلفون، سواء اشتركوا في رقعة جغرافية واحدة أو كانوا مستقلّين عن بعضهم أو من خلال المقارنة يمكن أن نحدّد اختلافاتنا مع ذلك الشّخص أو مع تلك المجموعة، فنحدّد بذلك ذواتنا ونرسم معالمها، كما نحدّد أيضا قيمتنا مقارنة بالآخر فنرفع من شأن الأنا ونعلي قيمتها، في مقابل التّقليل من قيمة وشأن الآخر، ويشيع مثل هذا الطّرح في تقابل الثّقافات خاصة وهذا ما يسود الخطاب الاستعماري[19]" فالآخر سواء كان فردا أو جماعة فإنّه سيعيش مع الأنا تجارب مختلفة إيجابية كانت كالقرابة و الصّداقة والجوار، أو سلبيّة كالمنافسة والخصومة والعداء، وهذه التّجارب وسواها تحدّد بتنوّعها طبيعة العلاقات ودرجاتها فتوصل إلى الانسجام والائتلاف أو إلى عدم التكافؤ الذّي يعكس الاحتلال والعنف وإلى غير ذلك.

وقد تحدّث الباحث "جان بول سارتر" عن مصطلح الآخر وعرّفه بأنّه "ما اختلف عن الأنا، وكان مستقلاّ ومختلفا عنها، فهو ذلك الأنا الذي ليس أنا، ويعتبره سارتر عاملا

فاعلا في تكوين الذّات، لانّ ذات الفرد تتأسّس على الآخر[20]" وحسب سارتر فإنّ حضور الآخر له أهمّية كبيرة إذ أنّ الكينونة الفردية تعتمد في الأساس على وجود الآخر، وجود الآخر "المختلف عقديا وهوياتيا يفرض على الأنا نوعا من القيود وحالة تمنعه منعا باتا من حرية الاختيار وترسي جبرية محقّقة، وقد ربط الباحث سارتر بين الآخر والجحيم "الآخرون هم الجحيم[21]" إذ ينطوي وجوده على عداء يدمر الانا.

وقد توجّه الباحث "ميشال فوكو" التوجّه ذاته، إذ ربط الآخر بالأنا، ذلك عندما أقرّ بأنّهما مصطلحان مترابطان ومتعالقان "فهما (الأنا والآخر) لا ينفصلان عن بعض، فالآخر متعلّق بالذات تعلّقا لا فكاك منه، شأنه في ذلك شأن ارتباط الحياة بالموت[22]"، فمفهوم الآخر إذا يتحدّد حسب الذّات فيكون مختلفا عنها ووجوده ملازم لوجودها، واستبعاد الذّات ما هو إلاّ استبعاد للإنسان نفسه فهو بهذا مقوّم جوهري من مقوّمات الذّات من حيث أنّها لا تكون كذلك إلاّ من خلاله ولا تتعرّف على ذاتها إلا من خلال "اللاأنا".

وقد تحدّث الدكتور "شاكر عبد الحميد" عن الآخر وقال أنه "يحتمل أن يكون هذا الأنا مفردا أو جمعا مذكرا أو مؤنثا ، وهو في أحيان معيّنة قريب، وفي أحابين أخرى يكون بعيدا، كما أنّه قد يكون صديقا وقد يكون عدوا نفكر في أنسب الطرق للتعامل معه[23]" فقد يكون ذلك الطّرف المتجبّر و المتسلّط، صاحب السّلطة الذّي يتحكّم في غيره كما يمكن له أن يكون قريبا صديقا، فهويته تختلف باختلاف المنظور الذّي تنظر منه الأنا فليس بالضرورة أن يكون الآخر البعيد جغرافيا أو صاحب العداء والتنافس وإنّما قد يكون غير ذلك فيكون القريب العدو، فالانا إذا هي التي ترسم حدوده وتضع مواصفاته وشكله فكما يكون فردا يكون في أحيان أخرى جماعة، وكما يكون معروفا للذات فإنه يكون في أحيان أخرى بعيدا غير معروف.

يمكن أن نستنتج من كلّ ما سبق عرضه أنّ الآخر هو الغير سواء كان العدو والذي اصطدم مع الذات وكان خصما لها ومتمردا عليها، أو كان صديقا متعاطفا منجذبا نحوها، وفي كل الأحوال، لا يمكن أن تفصل بعضهما عن بعض فهما رغم طبيعة العلاقة التي تجمعهما (اتصال، انفصال) متلازمان.

3. صورة صراع الأنا والآخر في رواية "فضل الليل على النهار":

تعدّ إشكاليّة الأنا والآخر من الإشكاليات الرّئيسية التّي أفرزتها الكتابة ما بعد الكولونيالية التّي ركّزت على إبراز العلاقة بينهما تقاربا وتعايشا أو تنافرا وعداوة، وقد استثمرت الرّواية كنص سردي ثنائية الأنا والآخر بصورة فاعلة وحازمة، عكست من خلال ذلك تناقضات الواقع المعيش واللّحظات المتغيّرة، وتبقى هذه الثّنائية من الثّنائيات غير المفهومة لكونها تتشابك وتتفاعل فيما بينها نتيجة الصّراع التّاريخي الذّي أفرزها، وقد عكست رواية ياسمينة خضرا هذا، إذ تناولت علاقة الشّرق بالغرب مظاهرها وأبعادها المختلفة، حيث تشتغل على إبراز صور الصراع الحضاري بين الأنا الجزائرية والآخر الفرنسي.

تدور أحداث الرّواية حول شاب جزائري اسمه يونس يعيش مع عائلته في مدينة من مدن الغرب الجزائري، يشتغل والده في مجال الزراعة التي تعد مصدر الرزق الرئيسي لهم، ليصل اليوم الذي تحرق فيه أرضهم تحت الشعار الذي اعتمده الفرنسي الغاشم (الأرض المحروقة)، فينعكس هذا على حياة البطل يونس الذي تتحول حياته إلى البؤس والشقاء، ويضطر الاب من ذلك الى رهن أرضه والانتقال للعيش في مكان آخر وتسوء حالته أكثر بسبب الفقر والحرمان، وليضمن الاب مستقبل ابنه تركه مع عمه الصيدلي المتزوج بفرنسية، والذي ألحقه بمدرسة فرنسية غيرت اسمه من يونس إلى جوناس، وبعد توقف عمه عن العمل انتقل معه من مدينة أخرى أين تعرف على أصدقاء فرنسيين من بينهم الشابة إميلي التي أحبها، لكن من المستحيل أن يكون معها لارتباطه مسبقا بوالدتها، وبعد انتهاء سنوات الثورة ينتقل يونس لزيارة قبر إميلي التي توفيت بعد معاناة ويلتقي هناك بأصدقائه الفرنسيين ويسترجع كل واحد منهم ذكرياته الماضية بعد أن زالت الفوارق والاحقاد.

تصوّر الرّواية المستعمر المغتصب لفضاء الأنا وتصوّر أيضا حالات الاغتراب الوجداني التّي يعاني منها بطل الرواية، كما تكشف عن حجم الدّمار الذّي ألحقه الفرنسي بالشّعب الجزائري إثر اغتصابه لأرضه، وما ألحقه من بؤس وتشريد بالسّكان الأصليين صاحبي الأراضي، فجاء في الرّواية "لما معناه، أنّ الأرض المغتصبة هي ارض

جزائرية، ملك للجزائري، وما الفرنسي إلاّ دخل مغتصب، فتلك الأرض هي أرض ذلك الجزائري الذي عاش فيها أزمنة عديدة. إنّها ملك الراعي، ذلك الانسان البسيط الذّي عاش هنا كلّ تلك الفترة، لحين دخول المستعمر الغاشم، الذي عمل على تحويل حياة الناس إلى جحيم[24]" ومن هنا تلخّص هدف الكاتب في الكشف عن العلاقة المزيّفة التّي تجمع فرنسا بالجزائر، ومحاولة إعادة بناء صورة جدّية من خلال وعي الأنا بأحقّيتها في ملكية الأرض، فقد استولى الآخر على أراضي الأنا الجزائري وممتلكاته ليصبح شريدا في أرض هي له.

كما صوّرت الرّواية أيضا النّظرة الدّونية التّي يحملها الآخر تجاه الأنا. وقد مثّلت في الفتاة إيميلي الحبيبة الفرنسية ليونس والتي مارست عليه كل أنواع العنف النفسي، وهي صورة من صور التّصادم الحضاري بين الأنا واللاأنا، والتّي تهدف إلى القضاء على الهوية الثقافية للفرد الجزائري، من خلال نظرة فرنسا الدّونية، فمعظم الفرنسيين ينظرون الى الفرد الجزائري أنّه همجي ومتعصّب وهذا ما يبرزه السياق الآتي من خلال حوار الآخر المجسد في إيزابيل و الأنا الجزائري المجسّد في شخصية يونس"، أين اعتمدت ايزابيل على كل الوسائل والطّرق حتّى تهينه وتنقص من قيمته، فتظهر بذلك صورة الاستعلاء والتكبّر التي ميّزت الفرد الفرنسي، فهي لم تتوانى ولا للحظة في إظهار الفروقات الطّبقية بينها وبينه فهما ليسا من طبقة واحدة، وزرقة عيني يونس ليست كافية للزواج منها، فهي تفضّل الموت على ذلك، فالعربي في نظرها غير مقبول للزواج، وغير مقبول للحياة حتى، فهو غير صالح، وليس في المستوى المطلوب[25]" هذه هي الصّورة التّي كانت تروّج لها فرنسا وتسعى لتحقيقها من خلال التّأكيد على دونية السّكان المحليين أصحاب الأرض والحق، ورفع صورة الآخر الذّي يظهر بأنّه المتفوّق والمهيمن والمركزي المتسلّط صاحب القرار والصّانع للحضارة دوما. وفي مقابل ذلك يظهر العربي مهزوما، ومضطربا ضعيفا.

وقد صوّر الرّوائي هذه الثّنائية أيضا من خلال توظيفه لعنصر المكان في الرّواية ففضاء الأنا عكس حجم الخراب الذّي خلّفه تواجد الآخر، وحجم الإهمال والتّهميش، في حين حضي فضاء الآخر الأجنبي بالتّميز والجمال "إذا تميز العمران في فضاء الآخر

بالترتيب و النّظافة، بنيت فيه المنازل والمرافق في تدرّج جميل، يضمن للفرد الحياة الكريمة، تميّزت المنازل بشرفاتها الجميلة التي تكسوها الزهور والورود، التي تطلّ على الطّريق المعبّد، والمحاط بالأرصفة[26]" ما يعكس حالة الاستقرار الاجتماعي والنّفسي الذّي كان يعيشه الآخر، فالصورة التي رسمها الرّوائي على لسان البطل يونس تحمل كلّ معايير السعادة والرّفاهية والتحضّر والسّكينة في نقيض ذلك "تميّز فضاء الأنا، بالتعفّن والرّائحة الكريهة، المنبعثة من ركام الغبار المتجمّع، ومن فضلات البيوت، والأكواخ التّي كان يسكنها الجزائري، ما يعكس حالة البؤس التي تفوق بؤس حضائر الحيوانات[27]" وبهذا التّوظيف لعنصر المكان سجّلت الأنا المفارقة بين محيطها ومحيط الآخر الذّي يمتاز بمعايير المدنيّة والتحضّر.

امتاز فضاء الآخر بالانتظام والحداثة على خلاف فضاء الأنا (مدينة المستعمر)، إذ عبّر عنها أنّها مكان سيء السّمعة يسكنه أناس سيئو السّمعة، وبهذا التّجسيد عكس الكاتب الرؤية الانهارية القائمة على الاعجاب والانبهار بالآخر، وأصحاب هذه الرّؤية يرون أنّ الغرب بما حقّقه من ازدهار وتقدّم في مجالات الحياة المختلفة. فهو جدير أن ننبهر ونعجب به، بل ويستحقّ الاحترام والتّقدير، ولعلّ السبّب الرّئيسي في ذلك هو العقلية الرّجعية للفرد الجزائري والذّي رسم لنفسه حدودا جعلته دوما مختلفا بسيطا وبدائيا يختصّ بالآخر الذّي يرى فيه العقلية المتقدّمة المتحرّرة والقوّة الجبّارة، وهذه هي المفارقة التّي أدّت إلى تدنّي الأنا وتفوّق وازدهار الآخر، وفي أحيان كثيرة تؤدي هذه النّظرة الانبهارية إلى تعطيل المقاومة وتلاشي الوعي، وبالتّالي الانصهار والذّوبان الكلي في حضارة الآخر الغربي وطمس هوية الأنا بالتماهي بالغرب وتكرار نموذجه.

لقد اكتسى الأنا الجزائري صورة المستَعمَر والآخر الفرنسي صورة المستعمِر انطلاقا من العلاقة التّي تجمعهما في الرّواية فالآخر هو العدو الكولونيالي المسيطر، الذي استولى على كل شيء، فجرّد الجزائري من أبسط حقوقه، وقد عبّر الكاتب من خلال روايته هاته عن حالة الفقر الشّديد الذّي عانى منه معظم الجزائريين بسبب المستعمر الغاشم، و على رأسهم والد بطل الرواية وبيّن ذلك من خلال "حديثه عن الوضع الذي كان يعيشه الفرد الجزائري، أين تسود المطابخ الشّعبية والمقاهي القديمة والحمامات البالية[28]" فصوّر من خلال هذا المكان حالة الفقر الشّديد النّاتج عن سياسة التّجويع

التي اعتمدها الآخر، كما تظهر أيضا صورة معاناة وكفاح الشّعب الجزائري ضدّ هذه السياسة التّفريقية الاضطهادية، وقد بيّن الكاتب ذلك، من خلال عرضه لطريقة "معاملة الفرنسي للجزائري، تلك المعاملة التي يسودها العلو والتكبر، فكان الفرنسي يصف الجزائري بالمقمل، وغيرها من الأوصاف، التي تنقص من قيمة الفرد وتحبط معنوياته،[29]" ومن خلال هذا القول نقل الكاتب صورة الآخر المستبد وممارساته التّعذيبية ومحاولاته إقصاء الانا والغائها.

ومن الصّور الأخرى عن التّصادم والصّراع بين الأنا الجزائرية، والغير الفرنسية، هي محاولة احتلال الجزائر فكريا حتى بعد استقلالها واستعادتها للسّيادة الوطنية، وذلك من أجل بقاء هويتها رهينة بيده، فشنّ حربه الفكريّة ويتّضح ذلك في شخصية البطل الذي كان ومزال يفكر في إيميلي الفرنسية حتى بعد فراقهما وحتى بعد موتها، ولعل الهدف من ذلك هو تعرية الحقيقة التّي سعت إليها فرنسا وحقّقتها إذ أنّ الجزائر حقّقت استقلالا سياسيا بينما مازالت مستعمرة فكريا وذهنيا، ويظهر هذا من خلال قول يونس "على طاولة السرير، جثمت علبة إيميلي جامدة مثل مرمدة جنائزية، امتدت يدي عفويا لإزالة القفل ولكنها لم تجرؤ على رفع الغطاء، لم أتمكن من غمض جفوني، حاولت أن أفرغ ذهني من أي تفكير، شددت الوسادة، تمددت على جانبي الأيمن، على جانبي الأيسر، على الظهر، أنا شقي يعزلني النوم، ولا أريد أن أكون وحيدا في الظلام[30]" وبناء على ما سبق عرضه نخلص أنّ رواية ياسمينا خضرا تعكس الصّورة الحقيقيّة للآخر الفرنسي بالنّسبة للأنا الجزائري كما تعكس الأوضاع المزرية التّي آل اليها الشعب الجزائري والتّي تنقل العلاقة بين الأنا والآخر في اطار ثنائية (مستعمر، مستعمر).

4. صورة الأنا بين تبلور الوعي وسوسيولوجيا الاعتراف:

يعدّ الباحث الألماني "أكسل هونيت" أهمّ منظّر لمصطلح الاعتراف إذ رفض الفكر الحداثي الذّي يقوم على تقوقع الذّات حول نفسها وانحيازها لأناها وقدّم بديلا يمكن من خلاله العيش مع الآخر دون عنصرية أو خوف، فانطلق هونيت في نظريته هاته بتعيين مفهوم الاعتراف على اعتبار أنّه الحلّ للمآزم الاجتماعية وأمراض العصر، ومفهوم الاعتراف في اللّغة الفرنسية مأخوذ "من الفعل معرفة أو اعترف، مثلا اعترف

بخطأ ما، أو اعترف بوجود ما[31]" فهو الإفصاح عن حقيقة موجودة والاعتراف يعني الوقوف على الخطأ والعدول عنه، وقد عرفه أندري لالاند من خلال اشارته الى مصطلحين فرنسيين "أولهما Recongnitition بمعنى عرفان أو اعتراف، إذ قسمنا كلمة Recongnition الى "R" نعني إعادة أو تكرار، أما connaissance تعني المعرفة، فالاعتراف هو إعادة المعرفة والتعرف[32]" وقد حددّ الباحث "هونيت" أساسيات الاعتراف المبنيّة على المحبّة و المودّة وعلى التّعايش والاعتراف بالأنا كعضو تفاعلي في الجماعة لا يمكن تجاوزه " فالإنسان لا يستطيع التوصل إلى إقامة علاقة عملية تواصلية بينه وبين الغير المنفصل عنه فكريا وعقائديا، إلا إذا أرسى فكره على تعاليم التفاهم وقبول الاختلاف[33]" فالذات الإنسانيّة بحاجة للاحترام والتّقدير الاجتماعي والأخلاقي، الذّي يؤسّس إلى هدم فكرة الأنا المركزيّة والمسيطرة والآخر المهمّش، ومنه حدّد "هونيت" معايير إيقينية تمارس من خلالها سياسة الاعتراف، يتلخّص المعيار الاول في التعايش والحب باعتباره الصّورة الأولية، ثم الحق والقانون الذي يمنع التجاوز بين الأنا والآخر ويحدد العلاقة بينهما.

إنّ سنّ "هونيت" لهذه الفلسفة كانت نتيجة للممارسات التّي مارستها الأنا المتسلّطة تجاه الآخر، الذّي تعرّض للاحتقار بأشكاله المختلفة، الجسدي، القانوني والاجتماعي في ذلك دعوة الى الانتقال من صراع الوجود إلى صراع الاعتراف. وبالرّجوع إلى رواية ياسمينة خضرا "فضل الليل على النهار" نجد أن تبلور الوعي كان نتيجة للمعاناة التّي تخبّط فيها بطل الرّواية الشاب يونس في رحلة بحثه عن هويته وذاته الحقيقية في واقع يطفح بالتناقضات، والاشارة الاولى الدالة على تشبّث الفرد الجزائري بالكيان الوطني هي شخصية العم، فرغم زواجه من فرنسية وتخرّجه من الجامعة الفرنسية الاّ أنّه لم يتخلى على روح وطنيته فجاء على لسان يونس "بأنّ عمّه كان رجلا واعيا بذاته، لم يغير زواجه من فرنسية نظرته لوطنه، فكان متضامنا معه، مناصرا للقضية الوطنية، ومؤمنا بها[34]" فقد حافظت الأنا الجزائرية على مقوّمات هوّيتها وانتمائها رغم محاولات الآخر الفرنسي محوها، وهذا التشّبث والتمسّك بعناصر الهوية الوطنية بحد ذاته صورة من صور الصّراع لتحقيق سوسيولوجيا الاعتراف.

حاول الكاتب من خلال طرحه هذا إظهار معاني الشّموخ والاعتزاز بالشّخصية الجزائرية الشّهمة والمتمسّكة بهوّيتها وأصالتها، فقال عن لالة فاطمة نسومر "أنّها كانت جميلة، وركّز في ذلك على إظهار كل الجوانب الفيزيولوجية التّي تظهر جمالها، فهي المرأة ذات الرقبة المستقيمة، والراس الشامخ، هي المفترسة الشجاعة، والمرأة المقدامة، قاومت المستعمر حتى استشهدت، لتبقى ذكراها راسخة في نفوس الجزائريين[35]" ومن ذلك محاولة رد الاعتبار للكيان الجزائري من خلال الاعتزاز والشموخ والعظمة التي تتميّز بها الشّخصية الجزائرية الحرة وهذا التّوظيف هو نوع من الاسترجاع الزمني للتاريخ الجزائري الحقيقي والدعوة الى الانتماء واثبات الذات.

إنّ الواقع الجزائري المرير، حيث الظّلم والهيمنة كان من أهم الأسباب التّي أدت إلى كشف خبايا الآخر وزيف حضارته المتخفية وراء دعوى المساواة، فكان ذلك هو المنطلق للبحث عن الهوية المفقودة والمتشظية بين يونس وجوناس، وكان جلول خادم العائلة الفرنسية هو الدّافع الذّي جعل يونس ينتبه إلى وضعه غير الطبيعي فجاء على لسان جلول "مخاطبا يونس بأن يتذكر من هو، وما حقيقته، فهو عربي جزائري ، وكانت مخاطبة جلول ليونس بمثابة محاولة لإيقاظه من بؤس ما يعيش فيه، ودعوة صريحة للعدول عن روح التماهي مع الكيان الفرنسي،[36]" فجلول هو الذّي جعل يونس ينتبه إلى الفرق بين الجزائريين الذّين يمثّلون أصله وبين الفرنسيين الذّين يمثّلون هوّيته الثّانية، فكان كلام جلول بمثابة صوت الضّمير الذّي استيقظ في قلب يونس وكان بمثابة الدّافع للبحث عن الهوية وإرساء معالمها في نفسية الآخر هو من الأسباب القويّة التّي تفرض على الآخر الرّضوخ والاعتراف بالأنا.

شكّلت سيطرة وسطوة الآخر الفرنسي على الأنا الجزائري دافعا حقيقيا سعت من خلاله الأنا للبحث عن استراتيجيات لتحقيق براديغم الاعتراف، وأهمّ هذه الاستراتيجيات هو الاعتزاز بالأنا والتّشديد على الانتماء القومي والتخلّص من الذّاكرة الاصليّة التّي تحدّد المصير والمستقبل، فسوسيولوجيا الاعتراف مؤسّسة على الطّرح الإيجابي للأنا والآخر في نظرتهما لبعضهما البعض وعدم التّجاوز والتّعدي.

5. خاتمة:

تعدّ الرّواية "فضل الليل على النهار" لياسمينا خضرا من بين أهم الرّوايات التّي عالجت بعمق إشكالية " الأنا والآخر" فنقلت في صورة محسوسة واقع العالم الإنساني الذّي أهلكته الحروب والصّراعات، فعالج الكاتب من خلال هذه الرّواية العلاقة التّاريخية بين الأنا الجزائريّة والآخر الفرنسي، والتّي شهدت توتّرات وانقلابات متنوّعة، كما حاول من خلالها تقديم البدائل عن الصراعات وهو التّعايش المرهون باعتراف الآخر بهوية الأنا.

6. الهوامش:

1 ينظر ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، ط1، بيروت، 2000، ص38.

2 ينظر إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر، دط، تركيا، ص28.

3 ينظر بطرس البستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان، دط، لبنان، 1987، ص 18.

4 ينظر حاتم زيدان، العيد جلولي، جمالية المراوغة والتوظيف الضمائري للآنا والأخر عبر اللغة الشعرية، دراسة في قصائد مختارة ..... مسقط قلبي، سمية محنش، مجلة الأثر، العدد 29، ديسمبر 2017 ص 195.

5 ينظر جميل صليبا، م ن، ص 141.

6 ينظر أحمد ياسين سليماني، التجليات الفنية لعلاقة الانا بالأخر في الشعر المعاصر، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا ط1، 2009، ص 192.

7 ينظر جميل صليبا، ص 140.

8 ينظر سيغموند فرويد، الأنا والهو، تر محمد عثمان نجاتي، دار الشروق، ط4، عمان، ص م 1

9 ينظر مدحت أبو النصر، إدارة الذات المفهوم والأهمية والمحاور، دار الفجر، ط1، مصر، 2008.

10 ينظر سيغموند فرويد، الأنا والهو، ص 42، 43.

11 ينظر عمر عبد العلي علام، الانا والآخر، شخصية العربية والشخصية الإسرائيلية في الفكر الإسرائيلي المعاصر، دار العلوم للنشر والتوزيع والمعلومات، ط 1، 2005، ص 10.

12 ينظر حاتم زيدان، العيد جلولي، جمالية المراوغة والتوظيف الضمائري للانا والآخر عبر اللغة الشعرية، دراسة في قصائد مختارة، م ن، ص 198.

13 ينظر الطهر لبيب، صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1990 م، ص158.

14 ينظر عبد العزيز حنان، نمط التفكير وعلاقته بتقدير الذات، مخطوط ماجيستير، قسم العلوم الاجتماعية، شعبة علم النفس، تخصص الإرشاد النفسي والتنمية البشرية، بوشلاغم يحي، جماعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، 2011، ص 11.

15 ينظر ابن منظور، لسان العرب، ص 13

16 ينظر إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر، دط، تركيا، د ت، ص 9.

17 ينظر محمد بني أبي بكر عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، محمد محمد تمار للنشر، د ط، د ت، ص 12 – 13.

18 ينظر المنجد في اللغة العربية المعاصرة، مجموعة من الباحثين، دار المشرق، ط2، لبنان، 2001، ص 861.

19 ينظر ميجان الرويلي وسعد البازغي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، ط4، بيروت، 2005، ص 23.

20 ينظر م ن، ص 21.

21 ينظر م ن، ص 22.

22 ينظر ميجان الرويلي وسعد البازغي، دليل الناقد الأدبي، ص 22.

23 ينظر عمرو عبد العلي علام، الأنا والآخر الشخصية العربية والشخصية الإسرائيلية في الفكر الإسرائيلي، ص12.

24 ينظر ياسمينة خضرا، فضل الليل على النهار، تر محمد ساري، وزارة الثقافة الجزائرية، الجزائر، د ت، ص403.

25 ينظر ياسمينة خضرا، فضل الليل على النهار، ص 98 – 110.

26 ينظر م ن، ص 28.

27 ينظر م ن، ص 28.

28 ينظر يسمينة خضرا، م س، ص 116.

29ينظر يسمينة خضرا، م س، ص 67.

30 ينظر م ن، ص 316.

31 La rousse de poche, precise de gramaire locutionlatines et étagères, librarie la rousse p 320.

32 ينظر أندري لالاند موسوعة لالاند الفلسفية، ت ر خليل، منشورات عويدات بيروت، م 1، ط 1، 2001، ص 118.

33 ينظر أكسل هونيت، الصراع من أجل الاعتراف، القواعد الأخلاقية للمآزم الاجتماعية المكتبة الشرقية، بيروت، ط5، لبنان، 2015، ص 170.

34 ينظر سمينة خضرا، مرجع سابق، ص 73.

35 ينظر يسمينة خضرا، مرجع سابق، ص 113.

36 م ن، 129.